بين السِحْر والعجيبة!

"باسم يسوع آمرك"

سمعنا التلاوة اليوم من فصل أعمال الرسل. يصل بولس إلى فيليبي مع بعض الرسل (ومنهم لوقا الإنجيلي كاتب سفر أعمال الرسل نفسه). هناك، اتّبعتهم جارية عرّافة (ساحرة) بها روحٌ شيطاني، وكانت تصيح بالناس: "هؤلاء الرجال هم عبيد الله العلي وهم يبشّرونكم بطريق الخلاص" (أع ١٦، ١٧). وبعد أن احتملها بولس أيّاماً كثيرة (ربما تجنبها) بعد ذلك "تضجّر والتفتَ إلى الروح وقال: إنّي آمرك باسم يسوع المسيح أن تخرج منها. فخرج على الفور".

نصادف في هذا الحدث ظاهرتين، الأولى هي العرافة والسحر، والثانية هي ظاهرة العجائب التي تمّت على يد الرسول، حيث طُرد الشيطان. هناك وجه شبه بين العجيبة والسحر فقط من حيث أنها حوادث فوق الطبيعة، ولكن بالعمق هناك فرق كبير بينها. ولإيضاح هذه الفوارق الكبيرة، سنتأمل بكلمات ثلاث وردتْ في النص الذي سمعناه أوّلاً بـ: "جارية بها روح عرافة" وهي تشرح لنا معنى السحر، ثمّ بصرخة بولس "باسم يسوع إنّي آمرك أن تخرج"، والتي تشرح لنا معنى العجيبة، وأخيراً بكلمة "وخرج الروح للفور"، التي توضح لنا غلبة قوّة النعمة على أيّة قوى غريبة.

"استقبلتنا جارية بها روح عرافة": كانت العرافة فنّاً متفشّياً في الأديان الشرقيّة السريّة. ونلاحظ ذلك بسهولة في وسطنا الذي لا يخلو من بقايا لهذه الأديان القديمة هنا وهناك. ألوان السحر هي عديدة. فهناك السحر المعتمد على الخدعة العلميّة، أو بكلمة أخرى على الجهل النسبيّ للناس. وهناك السحر المعتمد على الشيطان كقوة غير منظورة، ويشمل هذا الموضوع كلّ ألوان الخدعة وقراءة المستقبل، ومنها فتح الفنجان أو استحضار الأرواح أو قراءة الأبراج أو الحجُب... الخ.

يتولّع الإنسان بالسحر بسبب من أنّه مقهور أمام ظروفه. فالبلايا والأمراض والعوارض الطبيعيّة غالباً ما تحرمه من الصحّة والمال والهناء وتحقيق الأحلام التي تتكسّر أمام قساوة الحياة. فيحاول الإنسانُ إزاء العالم الذي يبدو وكأنّه يسحقه، وإزاء كائنات تُخيفه، أو يرغب في السيطرة عليها، أن يحصل على قوّة خارقة تتفوّق على القوى المعاكسة له. ولعلّ ألدَّ الأعداء للإنسان هو الخوف من المستقبل،

الذي هو مجهول، ولذلك مخيف. يبحث الإنسان عن السلام ويعشق الاطمئنان، ولكن المجهول في طبيعة المستقبل يكدّر على الإنسان حياته ويؤرّقها. هكذا عندما يقدّم له السحر معرفة الغيبيّات والمستقبلات يصير له بمثابة إلهٍ يطمئن إليه.

وإن كان التطوّرُ العلميّ وارتفاع المستوى الثقافيّ للناس يلغيان إيمان الناس بالسحر، بشكله القديم، إلاّ أنّ الميل للسيطرة على المستقبل والرغبة بإخضاع المجهول لا يزالان متأصّلَين في قلب الإنسان، ويقودان إلى ممارسة السحر ولو بأشكال جديدة، والمدهش هو تهافُت العديدين على تتبّع محطّات العرافة وقراءة القدر والأبراج، على تفاهتها! ناهيك عن "العرافة" في البرامج الصباحيّة لمحطات البثّ الإذاعيّ التي تطالعنا في مبدأ النهار بخزعبلات "الأبراج" وقراءة الحظ أو القدر. إنّ هذه العادات غير مسيحيّة البتّة وتكوّن للإنسان مفهوماً عن الحياة كاذباً ووهميّاً.

لكن يلتفت بولس إلى الروح الشريرة ويقول: "إنّي آمرك باسم يسوع المسيح أن تخرج منها"، وهذه هي العجيبة. لقد عرف الكتابُ قوّة العجائب الإلهيّة. وبشّر يسوع بالأقوال (الوعظ) والأعمال (القوى- العجائب). وكذلك التلاميذُ نشروا الرسالة "وكانت يد الله (تحقيق العجائب) معهم". وأنبأ يسوع تلاميذه، أن من يؤمن به يعمل الأعمال التي هو يعملها وأكثر (عجائب). لا شكّ بأن العجائب تحتلّ مكانة واضحة ومميزة في البشارة وحياة الكنيسة خاصّة في سنواتها الأولى، وقد قادت كثيرين إلى الإيمان.

رغم تشابه العجيبة مع السحر من حيث ظهور قوّة لا طبيعيّة، إلاّ أنّ الفارق بينهما هو كبير جدّاً. فمن حيث المصدر، تعود العجيبةُ إلى الله، ويعود السحر إمّا إلى الخدعة أي التفوّق العلميّ للساحر على جهل المشاهدين، أو إلى الشيطان كقوّة غير منظورة تحقّق أعمالاً غير اعتياديّة.

ولكن الفارق الأهمّ بين الأعجوبة والسحر هو غاية كلّ منهما. إنّ غاية السحر هي محاولة السيطرة على المستقبل وفكّ رموز المجهول فيه، بحيث يشعر الإنسان أنّ المستقبل صار في قبضته، لهذا لا يعود مخيفاً ولا مجهولاً أو رهيباً، أي أن يقبض الإنسان على المستقبل بين يدَيه الآن. أمّا غاية الأعجوبة فهي عكس ذلك تماماً. لا تريد الأعجوبة أو النبوءة أن تقرأ المستقبل أو تضعه بين يدَي الإنسان، على العكس، تدخلنا الأعجوبة في الإيمان، الذي يضعنا مستقبلاً في يدِ الله. إذا كان السحر يريد أن يضمن للإنسان حياته وسلامه بالقبض على المستقبل، فإنّ الأعجوبة تضمن للإنسان حياته وسلامه بإيداع مستقبله في يد الله. للمؤمن، حين يكون المستقبل بيد الله يصير مضموناً أكثر منه عندما يكون الآن في يدنا. إنّ يد العناية الإلهيّة صالحة أكثر من يد المعرفة الإنسانيّة. لا يطلب الإيمان

فكَّ أحجية الزمن وقراءةَ المستقبلات، إنّما يؤهّلنا لمعرفة روحيّة تطمئن. وتحثّنا على العمل اليوم بجدّية تلائم الإيمان وتقودنا لإيداع المستقبل بسلام في يد العناية الإلهيّة الصالحة.

لقد قادت كلّ العجائب أصحابها إلى الإيمان، أي إلى التحرّر من خوف المجهول، الذي حلّ محلّه يقين الإيمان بالعناية الإلهيّة.

"فخرج الروح على الفور"، هذه الكلمة توضح انكسار إغراء السحر أمام نعمة العجيبة. شجب ويشجب الكتابُ المقدّس كلّ ألوان السحر والعِرافة! فالإيمان ليس جهلاً، بل يأخذ بالعلم دون السّحر. عندما يتعرّض الكتاب إلى بعض حوادث يورد فيها قصص سحرٍ أو عرافة، فذلك لكي يؤكّد حقيقة تفوّقِ العناية الإلهيّة على القوى الشيطانية أو الخدعة البشريّة. لقد قتل إيليا بعد أعجوبته كلّ سحرة البعل. وتفوّق يوسف في مصر بقراءته للمستقبل (أعجوبة-نبوءة) على كلّ العرافين في مصر (تك ٤١). واندهش سمعان الساحر من قوّة بطرس الرسول (أع ٨، ٩-٢٤). وهنا بولس يتمّم عجيبة طرد الروح الشرير من الجارية إعلاناً لغلبة النعمة الإلهيّة على القوى الشريرة.

لقد تمّت المعجزات لكي يستغني البشر عن السحر. فالعجيبة هي "إشارة" أنّ الله هنا ويرعانا. أمّا السحر فهو فنّ يحاول القبض على المستقبل وأن يحرّر من الخوف لكن دون أن يلغي أسبابه حقّاً. بينما إذن، تضع العجيبةُ مستقبلَنا في يد العناية الإلهيّة يحاول السحر وضع المستقبل في يد المعرفة البشريّة. إنّ السحر عكس الإيمان بالكليّة.

نتأمّل كمسيحيّين وبخشوع كبير بكلمة النصّ من أعمال الرسل "خرج الروح على الفور"، وهذه تعني لنا أنّ عناية الله أقوى بكثير من القوى الشرّيرة. هذه الكلمة تعلّمنا أنّ الإيمان بالعجيبة أضمن من الاتّكال على الممارسات السحريّة المختلفة. لقد رفض يسوعُ إغراءَ الشيطان في التجربة على الجبل، حين جرّبه باللجوء إلى السحر، لإشباع جوعه وإدهاش الناس، أو أن يرمي ذاته عن سور الهيكل ولا تعثر بحجر رجلُه. إنّ السلطان لا يؤخذ من الشيطان والسلام لا يأتي بالسحر بل يُستمدّ من الإيمان.

"باسم يسوع المسيح إنّي آمرك أن تخرج"، بهذه العبارة يعرفُ المؤمنُ المستقبلَ ويتغلّب على أيّ قلق أو صعوبة أو معضلة أو شدّة. اسم يسوع هو سلامنا، والغلبة هي لإلهنا، وباسم يسوع ستخرج أي روح قلقة شرّيرة على الفور في أيّة شدّة نتعرّض لها. آمين.